نظرى خالص — ويذهب وليم جيمز أيضا إلى أن المنهج العملى فى جوهره معارض للنزعات العقلية ، لأنه لا يسلم مطلقا بأن ثمة « حقيقة » فى ذاتها ، أو أن هناك عقلا مطلقا ليس على الواقع سوى أن يخضع لمنطقه أو أن يتطور على أساسه . وهكذا نرى أن المنهج العملى هو عبارة عن صراع عنيف ضد فكرة « الحقيقة » La Vérité على نحو ما تصورتها الفلسفات المثالية التقليدية .

نظرية جيمز فى الحقيقة :

أراد وليم جيمز أن يطبق منهجه العلمى على مشكلة طبيعة الحقيقة ، فذهب إلى أن ما يحدد معنى الحقيقة . « Truth » على العموم إنما هو ما يترتب عليها من نتائج Consequences وإذا كنا نحن فى العادة نميز بين صدق القضية (من حيث هى قول يكافئ فيه الإثبات الشىء المثبت) وبين مجموع العمليات التى لا بد من القيام بها من أجل امتلاك تلك الحقيقة أو من أجل التوصل إلى معرفة صحتها ، فإن الفلسفة العملية ترفض مثل هذا التمييز ، وتذهب إلى أن الحقيقة ليست مجموع تلك العمليات . فالنظرية الصحيحة إن هى إلا تلك النظرية التى تقودنا بالفعل إلى النتائج العملية الفعالة . وهكذا يمكننا أن نقول بصفة عامة إننا نعرف أى موضوع من الموضوعات معرفة حقيقية ، حينما نقوم بالفعل ، أو حينما نستطيع أن نقوم على الأقل ، بتحقيق تلك العمليات التى من شأنها أن تنتقل بنا من تجربتنا الراهنة إلى تجربة أخرى جديدة تأتى بنا مباشرة أمام الموضوع المراد معرفته . وعلى ذلك ، فإن الفكرة الحقيقية ليست بمثابة صورة مطابقة للشىء ، بل هى بالأحرى عبارة عن فكرة من شأنها أن تقودنا إلى إدراك ذلك الشىء .

بيد أننا نجد عند جيمز تعريفا آخر للحقيقة يختلف عن التعريف السابق من بعض النواحى ، إذ نراه يقول إن القضية لا تكون صحيحة (أو حقيقية) إلا إذا كان فى قبولنا لها ما ينتهى بنا إلى نتائج مرضية ، أعنى أن صدق القضية رهن بما يترتب على التسليم بها من إرضاء لحاجات الفرد البشرى ، بسيطة كانت أم معقدة . وبينما نجد أن التعريف الأول للحقيقة لا يكاد يخرج بنا عن مجال

الإدراك المباشر للموضوع ، باعتبار أن هذا الإدراك هو المرحلة الأخيرة فى صميم تلك العملية التى نسميها باسم « الحقيقة » Truth ، نرى أن التعريف الثانى يكاد يكون مستقلا تمام الاستقلال عن كل إشارة إلى الإدراك ، إذ الإحالة هنا إلى فكرة الاختبار أو الامتحان Épreuve ، أعنى امتحان الفكرة عن طريق التطبيق أو الاختبار العملى ، بحيث إن الخطأ نفسه ليبدو هنا ضربا من الفشل أو الخسارة . وبهذا المعنى الأخير تصبح « الحقيقة » أقرب ما تكون إلى « الاعتقاد الحيوى La croyance vitale على نحو ما فهمه نيومان Newman وتلك فكرة لا يستبعد أن يكون وليم جيمز قد أخذها عن والده هنرى جيمز (ذلك العالم اللاهوتى النازل من سلالة إمرسون) . وعلى كل حال فقد ذهب جيمز إلى أن الحق لا يكون حقا إلا إذا كان فى خدمة الخير ، كما ذهب أيضا إلى أن الحقيقة الحية ليست فكرة تنتقل من ذهن إلى آخر ، بل إنما الحياة وحدها هى التى تفصل فى قيمة الحقائق

(E. Bréhier : «Histoire de la Philosophie », r. II., P. 1040)

ولو أننا أردنا أن نعرف الأصل فى نظرية جيمز فى الحقيقة ، لوجدنا أن نزعة جيمز التجريبية هى التى دفعته إلى جعل « الحقيقة » ضربًا من « التحقق » Vérification ، كما هو الحال فى العلوم مثلا . والواقع أن كل الحقائق العلمية إن هى إلا مجرد فروض نتحقق من صحتها عن طريق ملاحظة التجارب الجزئية وليست أشد النظريات العلمية احتمالا وانسجاما سوى مجرد فروض ، إلى أن نتثبت من صحتها بالرجوع إلى وقائع ملاحظة . وهكذا الحال أيضا بالنسبة إلى سائر تصوراتنا ومفهوماتنا فإنه لا بد من أن نخضعها لحكم التجربة ، حتى نتحقق من صحتها علميًا . فإذا ما طبقنا على المعانى والتصورات والأفكار هذا المنهج التجريبى ، كان فى استطاعتنا أن نميز بين القضايا الصحيحة والقضايا الكاذبة ، لأن « الحقيقة ليست سوى اسم الجنس الذى ينطبق على كافة أنواع الأفكار ذات القيمة العملية المحددة ، مما نتحقق عمليا من تأثيره فى مجال التجربة » . وهذا ما يعنيه وليم جيمز حينما يقول إن « الحقيقة » لا تعنى فى مجال

الأفكار والمعتقدات شيئا آخر سوى ما تعنيه فى مجال العلم . والواقع أن الأفكار نفسها إنما هى أجزاء من التجربة ، وهى لا تصبح حقيقية إلا بقدر ما تعيننا على أن نكون علاقات مرضية جديدة مع أجزاء أخرى من التجربة . فللحقيقة إذن طابع ذرائعى Instrumental (على حد تعبير ديوى) ، لأن وظيفة الحقيقة تنحصر فى الربط بين أجزاء تجربتنا ربطا عمليًا مرضيًا ناجحًا . وهكذا يقرر چيمز مع مدرسة شيكاغو أن صدق الأفكار إنما يعنى قدرتها على العمل أو على أداء وظيفة : Truth in our ideas means their power to "work" .

لقد كان الفلاسفة القدامى يتوهمون أن هناك عالما معقولا ، فوق الزمان والمكان ، فيه توجد كل الحقائق الممكنة ، فكانت القضايا الإنسانية فى نظرهم صادقة بقدر ما تجىء مطابقة لتلك الحقائق الأزلية . ولما جاء المحدثون أنزلوا الحقيقة من السماء إلى الأرض ، ولكنهم ظلوا يرون فى الحقيقة شيئا سابقا على أحكامنا وقضايانا . وما مهمة العلم فى نظر المحدثين سوى الكشف عن الأشياء والوقائع ، إذ بذلك يتسنى لنا أن نخرج الحقيقة من مكمنها وأن نلقى عليها من الضوء ما يكفى للوقوف على قوانين الأشياء . وبهذا المعنى ظل المحدثون ينظرون إلى الوقائع على أنه كل منظم متماسك تسود بين أجزائه رابطة منطقية هى الحقيقة نفسها . ولكن التجربة — على نحو ما رآها چيمز — لا تكشف لنا عن أى شىء من هذا القبيل : إذ أن العالم كما رأينا ليس وحدة متماسكة ، بل هو مجموعة من الأشياء التى تتطور وتتغير فى صيرورة مستمرة وزمان حى متجدد .. وإذا كان الرأى التقليدى القائم على فكرة الثبات يعرف الحقيقة على أساس تطابقها مع شىء موجود من ذى قبل ، فإن وليم چيمز لا يرى فى الحقيقة مجرد نسخة مطابقة لما قد كان أو ما هو كائن ، بل هو يرى أن الحقيقة تؤذن بما سيكون ، أو هى على الأصح تعد فعلنا لما سوف يكون . وبعبارة أخرى فإنه إذا كانت الفلسفة التقليدية تميل إلى أن تجعل « الحقيقة » تنظر دائما إلى الخلف ، فإن الفلسفة العملية تجعلها تنظر دائما إلى الأمام . وقد لخص برجسون (فى المقدمة التى كتبها

للترجمة الفرنسية لكتاب وليم جيمز المسمى بالبرجماتزم) وجهة نظر جيمز فى الحقيقة فقال: « بينما ترى المذاهب الأخرى أن أية حقيقة جديدة إن هى إلا اكتشاف Découverte ترى الفلسفة العملية أنها اختراع « invention »(١) .

من هنا نرى أن « الحقيقة » فى نظر جيمز ليست « صفة ساكنة » أو « خاصية قارّة » Stagnant property فى أية فكرة من الأفكار ، بل هى أقرب ما تكون إلى حدث يعرض للفكرة فتصبح بمقتضاه صحيحة . وفى هذا يقول جيمز بصريح العبارة : « Truth happens to an idea. It becomes true, is made true by events » (P 201) فالفلسفة العملية (كما رأينا) لا تجعل من الحقيقة مجرد توافق بين أفكارنا والواقع ، بل هى تقرر أن الفكرة تصبح حقيقية حينما يثبت بالتجربة أنها فكرة صالحة مفيدة . والواقع أن الفلسفة العملية هى النتيجة المنطقية الضرورية للنزعة التجريبية . لأنه إذا كانت الحقيقة كامنة فى الإحساس وحده ، وإذا كان « التصور » Concept هو عبارة عن خلاصة تحكمية للتجربة الحسية ، فإن القيمة الوحيدة للتصور سوف تنحصر فى طابعه التحكمى Arbitraire من حيث هو ملائم أو محقق لغاية عملية . ومن جهة أخرى فإنه إذا كان « التصور » ذاتيا صرفا ، وإذا لم يكن ينطوى فى ذاته على حقيقة واقعية موضوعية ، فإن صحته لا يمكن أن تحدد إلا بالنظر إلى نتائجه ، أى بتطبيقه على الحقيقة الخارجية ، ومعرفة مدى نجاحه أو فشله فى هذا السبيل . وتبعًا لذلك فإن المذهب العملى Pragmatism لا بد أن يستحيل إلى مذهب تطبيقى Practicalism ينادى بامتحان الأفكار عمليًا لمعرفة قيمتها ، وأثرها ، وفائدتها ، وقوتها .

ويذهب جيمز إلى أننا لن نستطيع مطلقا أن نتجاوز نطاق التجربة ، فليس هناك موضع لأن نتحدث عن حقيقة مطلقة ، أو عن « شىء فى ذاته ، يكون

---

(١) Ch Bergson : « Introduction » : Verité et Réalité; dans « Le Pragmatisme » trad. franç, Paris, 1911. P. 11.

نطاق كل منهما فيما وراء الظاهرة . وهكذا يستبدل چيمز بتلك الحقيقة المطلقة — التى لن تغير منها أية تجربة مستقبلة كائنة ما كانت ، حقائق متغيرة نتحقق من صحتها عن طريق التجربة ، ونتثبت من صحتها بالرجوع إلى نتائجها العملية . وما دامت « الحقيقة » Truth هى « التحقق » Verification ، فإن الأفكار الحقيقية إنما هى عبارة عن أفكار موجهة ، أو فروض ناجحة ، أو عمليات مثمرة . وليس من المهم أن تكون ثمرة الفكرة مباشرة ، إذ قد لا نستطيع أن نتوصل إلى النتائج العملية المترتبة على فكرة ما من الأفكار بطريقة سريعة مباشرة ، دون أن يكون فى ذلك ما ينفى عن تلك الفكرة طابع « التحقق » أو إمكانية التحقق Verifiability على الأقل . والواقع أننا كثيرًا ما نكفى أنفسنا مئونة التحقق من الكثير من أفكارنا العادية ، اكتفاء بهذه الإمكانية (إمكانية التحقق) التى نحن على ثقة منها . ولهذا فإن چيمز يقرر أن معظم الحقائق تعيش على نظام مالى قوامه الاستدانة Credit system وتظل أفكارنا ومعتقداتنا سارية المفعول ، طالما ظل الناس يتقبلونها دون تحد أو توجس ، مثلها فى ذلك كمثل أوراق النقد التى تظل محتفظة بقيمتها طالما ظل الناس يتداولونها فيما بينهم . (« Pragmatism », P. 207)

ولو أننا أنعمنا النظر فى مذهب چيمز فى « الحقيقة » Truth ، لوجدنا أنه يستعمل كلمة « نتائج » Consequences بمعنيين مختلفين ، مما يدلنا على أنه قد ظل متأرجحا بين المزاج الخشن Tough - minded والمزاج الرقيق : Tender - minded . أما المعنى الأول فهو ذلك الذى يقرر أن معنى أية قضية Statement هو عبارة عن نتائجها **المباشرة** التى يمكننا أن نتحقق منها عن طريق التجربة . وهذا هو ما قصد إليه بيرس فى الأصل بنظريته فى المعنى ، حينما ذهب إلى أنه حيث لا يكون ثمة نتائج عملية مباشرة ، فليس ثمة معنى . والمنهج العملى — مفهومًا على هذا النحو — هو وثيق الصلة بفلسفة الذرائع Instrumentalism وببعض الفلسفات الوضعية المعاصرة . ولو أخذنا بوجهة نظره ، لكان علينا أن نسلم بأنه ليس ثمة موضع لإثارة

الكثير من المشاكل الميتافيزيقية كمشكلة الله مثلا : لأنه سواء قلنا إن الله موجود أم قلنا إنه غير موجود ، فإنه لن يكون فى استطاعتنا عن طريق التجربة الموضوعية المباشرة أن نتحقق من وجود أى فارق حقيقى بين معنى هاتين القضيتين .

وأما المعنى الثانى لكلمة « نتائج » Consequences عند وليم جيمز فإنه يشير إلى النتائج **غير المباشرة** التى تترتب على الإيمان بفكرة أو التمسك بعقيدة . وفى هذه الحالة ليس للقضية ذاتها نتائج موضوعية مباشرة نتحقق منها عن طريق التجربة ، بل إن للإيمان بتلك القضية نتائج عملية مرضية . وبهذا المعنى يمكننا أن ننظر إلى الإيمان بالله على أنه ينطوى على معنى ، لأنه يحدث بالفعل اختلافًا كبيرا فى حياة المؤمن . بيد أن النتائج المترتبة على هذا الإيمان فى مجال التجربة ليست مستخلصة من القضية ذاتها ، أو من الواقعة المفترضة ، بل هى وليدة الاعتقاد بأن لهذه القضية أو الواقعة المفترضة مثل هذه النتائج . وبعبارة أخرى فإنه ليس وجود الله نفسه هو الذى يحدث فارقًا أو اختلافًا فيما يختبره الفرد فى مجال تجربته ، بل كل ما هنالك **أن اعتقاد** الفرد بوجود إلـه من شأنه أن يصبغ بصبغته الخاصة موقفه من الحياة ونظرته العامة إلى الوجود ، فيحدث نتائجه بطريقة غير مباشرة . وحينما يشعر المرء بالراحة أو السلوى لأنه على يقين من أن الله موجود ، فإن هذه الراحة أو تلك السلوى ليست هى معنى إيمانه بأن الله موجود ، وإنما هى مجرد نتيجة لتمسكه بهذا الإيمان أو ذلك الاعتقاد « Belief » .

ومهما يكن من شىء ، فإن وليم جيمز قد فهم كلمة « نتائج » على نحوين مختلفين ، فوقع بذلك تحت تأثير كل من العقليتين الخشنة والرقيقة ، دون أن يستطيع التوفيق بينهما تمامًا . ولو أن جيمز بقى مخلصًا للمبدأ العملى على نحو ما وضعه بيرس ، لكان عليه أن يجعل محك صدق الأفكار هو الرجوع إلى نتائجها العملية المدركة Perceptual فى صميم التجربة . ولكنه وسع من معنى كلمة « نتائج » فأدخل فى نطاقها الآثار الوجدانية والغايات العملية ... إلخ . وهكذا أصبح « الحق » فى نظر جيمز يعبر عن « الملائم » Expedient فى مجال التفكير ، كما أن « الخير » هو « الملائم » فى مجال السلوك . وربما كان فى وسعنا أن